

حمدى عباس

سيكولوجية المقاتل فى حرب أكتوبر



obeikandi.com



لم تكن حرب أكتوبر من الناحية النفسية حرباً تقليدية لتحرير أرض مغتصبة فحسب ، بل كانت عملاً مجيداً أكد به المقاتل العربى قدرته الحقيقية على التخطيط والتفكير المنطقى السليم ، بعد أن أشاعت كل وسائل الدعاية المضادة أن المقاتل العربى لا يستطيع فى أى مرحلة من مراحل الصراع العربى الإسرائيلى أن يخطط تخطيطاً علمياً ناجحاً لحرب ناجحة ، يخوضها تنفيذاً لهذا التخطيط المبني على الحسابات الدقيقة ، ليحقق فى النهاية نصراً عسكرياً مشرفاً . ومن هذا المنطلق لم تكن حرب أكتوبر حرب استعادة أرض سلبية فحسب ، وإنما كانت حرب استعادة ثقة .

لقد وجد المقاتل المصرى نفسه يعمل فى ظروف تختلف تماماً عن الظروف التى عمل فى ظلها قبل حرب ١٩٦٧ وفى أثنائها . تلك الظروف كانت قائمة على سياسة استعراض القوة المظهرية دون تثبيت لدعائم هذه القوة - ولقد حدث قبل حرب ٦٧ أن قام الجيش المصرى بمناورات حربية اعتبرتها القيادة على درجة كبيرة من الأهمية ، فسارعت جريدة أمريكية تمولها عناصر صهيونية ، وبالاتفاق مع المخابرات الإسرائيلية بنشر موضوع عن هذه المناورات ، وجاء فى صدر صفحتها

الأولى أن « مصر تملك أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط » . وتناقلت وكالات الأنباء هذا الخبر على أساس أنه سبقُ صحفي . . حتى وصل إلى الصحف المصرية فأبرزته في صدر صفحاتها الأولى . . مُصدقةً ومُسلِّمةً بكل ما جاء به . واستشرى هذا الشعور داخل الجيش . أى أن الإحساس بالقوة في تلك الفترة لم يكن قائماً على أسس واقعية وعلمية مدروسة ، بل كان قائماً على « الإيهام بالقوة » ، مهَّدت له وسائل الدعاية المضادة ، فصدَّقناه . . وبعد أن خُدِّرَت نفوسُنا سَعَتْ إسرائيل إلى كل دول العالم تطلب العون والمساعدة والمال والسلاح ، بصفتها الدولة الضعيفة في المنطقة . وكنا نحن أول ضحايا « وهم القوة » .

واستُدْرِجنا بعد ذلك إلى حرب ٦٧ ، ثم حدثت الهزيمة العسكرية . لم يكن فقدان الأرض هو أفدح خسائر هذه الحرب ، بل كاد أن يكون الانهيار النفسى وفقدان الثقة أفدحَ الخسائر وأقساها . . لقد استطاعت إسرائيل احتلال الأرض . . وحاولت « احتلال » نفسية المقاتل . ولكن هزيمة ٦٧ العسكرية ألقت ضوءاً كاشفاً قوياً تبيّن خلالها العيوب والأخطاء والمهازل التي وقعت ؛ ومن ثمَّ خرج الشعب ليُعلن على العالم رفضه الهزيمة وإصراره على مواصلة النضال الحقيقي لاستعادة الأرض . . واستعادة الثقة .

تغيَّرت القيادات . . وتغيَّرَ معها أسلوب العمل . . وبدأت القوات المسلحة عملية التخطيط السليم والحسابات الدقيقة وتطبيق الأسلوب العلمى في إدارة شئون الجيش المختلفة . . فأوفدت الضباط والجنود أيضاً في بعثات دراسية لدول متقدمة علمياً ، وصديقة . . وبدأت مرحلة من العمل الشاقَّ الرهيب الصامت . رفَعَتْ فيها القوات المسلَّحة شعار « العرق في التدريب يوفر الدم في المعارك » . وكان لتجنيد المؤهلين علمياً أثر بالغ في تطوير أساليب العمل داخل القوات المسلحة . فقد تغير الأمر تغيراً كلياً بعد أن صار الجندى « الأمي » - الذى كان يتعامل بصعوبة بالغة مع بندقية بسيطة التركيب - مقاتلاً جامعياً أو متعلماً تعليماً متوسطاً ، يتعامل بفهم ووعى وذكاء مع آلات معقَّدة التركيب وصواريخ تعمل إلكترونياً . وهذا التغير قد أتاح الفرصة أمام القيادات للتوسع في عملية استيراد

الأسلحة الحديثة والمعقدة والأجهزة الإلكترونية ، وهى على يقين أن هناك عقولاً تستوعب تعقيد هذه الأسلحة ، وتستطيع أن تتعامل بها مع العدو فى براعة تسندها الشجاعة وتؤيدها الثقة . .

والأهم من ذلك أن العلاقة بين أفراد « الوحدة » العسكرية قد تغيرت أيضاً . . . فعلى سبيل المثال كان الجندى المتخرج فى الجامعة ، يعمل تحت قيادة « ضابط » متخرج فى الجامعة أيضاً . . وربما متخرج فى الكلية نفسها . . أو فى دفعة التخرج التى تخرج فيها هذا الجندى - واستوعب الضباط خريجو الكلية الحربية - المؤهلون علمياً وعسكرياً - هذه الروح الجديدة ، وصار ارتباط الجندى بوحدته ارتباط زمالة وصداقة وتفاهم متبادل ، فى إطار من الاحترام والانضباط الذى تفرضه التقاليد العسكرية .

ومن ناحية أخرى قام هؤلاء الجنود المؤهلون ، بعملية توعية وتثقيف وتعليم لزملائهم غير المؤهلين علمياً داخل الوحدة . وبذلك انتقلت القوات المسلحة إلى مرحلة جديدة من العلاقات . . علاقات التفهم العميق من المقاتلين للمعدات المعقدة التركيب . هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى . . علاقات إنسانية متبادلة بين المقاتل وقادته ، مما أدى إلى بلورة الهدف وراء هذا العمل الشاقّ الرهيب الدءوب الصامت .

وتوافرت لدى القيادة كل الظروف للعمل على استرداد أهم ما فقدته فى حرب ٦٧ ، وهى « الروح المعنوية » وذلك بما عرف باسم « حرب الاستنزاف » . لقد كانت هذه الحرب حرباً نفسية قبل أن تكون عمليات حربية تقليدية . . ومهما قيل عن الخسائر المادية التى تعرضت لها مدن القناة أو قواتنا فى العراء ، فإن هذه الحرب التى لم تتجاوز مجموعة عمليات عسكرية خاطفة قد أكدت حقيقة لا تقبل الجدل ، هى أن بوسع الجندى المصرى أن يسترد مكانته بين جيوش العالم عن جدارة واستحقاق .

إن أسوأ اللحظات التى تمر بالجندى المقاتل هى لحظات البقاء فى خندقه . . بتدرب وينتظر ، ولا شئ غير هذا . . فهذه اللحظات تجعله نهياً لصراعات نفسية

عقيدة . . ونصيح نفسية الجندى بذلك . . أرض عمليات لحرب غريبة . . هي
لحرب النفسية . . والنصر العسكري لا يحزره إلا من ينتصر في هذه الحرب النفسية . .
وتعد هذه الحرب - التي خاضتها قواتنا المسلحة طيلة سنوات الاستعداد والترقب -
من أشرس الحروب النفسية التي شهدتها تاريخ الحروب .

إن حجر الزاوية في بناء الحرب النفسية هو « العقيدة القتالية » ، فالعقيدة
القتالية للجيش المحارب هي التي تبلور كل الحقائق أمامه وتوضح له الرؤية
وتحدد له الأهداف التي من أجلها يدور القتال . . وفي حرب ٦٧ لم تكن هناك
عقيدة قتالية واضحة ومقنعة أمام المقاتل . . بل كانت هناك عدة « مسوغات »
لا « عقائد » ، فتارة يقولون له إنه ذاهب لتطهير القدس . . وتارة أخرى للدفاع
عن شرفه وعرضه . . ثم رفعوا له شعار « حماية عملية بناء المجتمع ضد الأخطار
الخارجية » . . وتضاربت « المسوغات » والشعارات حتى أصبح الذهاب إلى الميدان
عملاً غير مفهوم . فالمقاتل لا يعرف شيئاً عن سلاحه . . ولا عن طبيعة الأرض
التي يقف عليها . . ولا عن الأسباب التي أدت لذهابه هناك . لذلك كان لا بد من
حدوث تغيير جوهري يؤدي إلى ظهور عقيدة قتالية . . سهلة الإدراك ومقنعة . .
يتفاعل معها المقاتل ويقتنع بها .

العقيدة القتالية بين مصر وإسرائيل

لقد فرض الواقع التاريخي صياغة العقيدة القتالية للقوات المسلحة المصرية .
فبعد أن فقدنا الأرض كان علينا أن نحدد الهدف وهو تحرير هذه الأرض .
وهكذا تبلورت العقيدة القتالية ، وأصبح الهدف واضحاً ومقنعاً . وصارت الرؤية
واضحة أمام المقاتلين ، وأضحى كل فرد داخل القوات المسلحة يعرف أن العمل
المكلف به هو « تحرير الأرض » . بعدها . . رال الغموض . . ولم يعد هناك مجال
للبحث عن مسوغات للقتال . . المسألة بساطة . . أن هناك أرضاً مغتصبة بالقوة .
وأنه يجب « تحرير هذه الأرض » . . بالقوة أيضاً .

وعلى الضفة الأخرى من قناة السويس كدت هناك قوات مغتصبة تحاول

صياغة عقيدتها القتالية منذ عام ١٩٤٨ . . والواقع أن من يعتقد في وجود عقيدة قتالية واضحة وثابتة للجيش الإسرائيلي ، مخطئٌ واهم . . لقد حاول حاخامات الجيش الإسرائيلي الربط بين ما جاء في كتبهم المقدسة وأطماعهم التوسعية وأحلامهم بتكوين إمبراطورية تمتد من النيل إلى الفرات . . ولكنهم أخفقوا في ذلك . . فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع ممزق . . يعاني من التناقضات . . والصراعات المختلفة ومن الأطماع والأحلام الشخصية . .

وبوسعنا أن نتخذ من بين أسرى الجيش الإسرائيلي اثنين فقط نموذجاً لهذا المجتمع المتناقض ، أحدهما محام يهودى أرجنتينى برتبة « رقيب » ترك وطنه الأصلي الأرجنتين سعيًا وراء أحلام امتلاك قطعة أرض يدافع عنها ببندقية صيد ضد شرذمة من العرب المسلحين بالخناجر . . (هكذا قالوا له) . . أى أنه جاء سعيًا وراء المغامرة والبطولة والتملك . . وحين وصل إلى إسرائيل وجد نفسه فجأة داخل « أوفارول » لونه أخضر داكن . . ثم وجد نفسه فجأة في مواجهة جيش نظامى قوى . . ثم وجد نفسه فجأة أيضاً ، بعد يومين من وصوله إلى الجبهة أسيراً لهذا الجيش النظامى . . القوى !!! لقد اعترف هذا المحامى الأرجنتينى باستعداده للعودة إلى وطنه الأصلي « الأرجنتين » ، بعد أن تكشفت أمامه الحقائق . . كان الرجل يشعر بالحسرة والندم ، ولكن بعد أن فقد ذراعه اليسرى في المعركة الخاطفة التى أدت إلى وقوعه في الأسر . . ! !

النموذج الثانى « نقيب » إسرائيلى من مواليد إسرائيل عام ١٩٤٨ . . عاش طفلة حياته في مستعمرات « الكيبوتز » . . تم أسره في إحدى المعارك الخاطفة بعد أن قُتل كل من كانوا معه وعددهم حوالى ستة وعشرين ، بواسطة مجموعة من رجال القوات الخاصة المصرية عددهم اثنا عشر مقاتلاً فقط !!! ! هذا النقيب لا يعرف عن « القضية » غير المعلومات المحددة التى صاغوها له في الكيبوتز . . لقد جاء إلى الدنيا وهو لا يعرف إلا أن فلسطين أرضه . . وأن الصهيونية قد حررتها من المغتصبين العرب ! ثم أقنعوه بأن على جيله أن يعمل ليسترد ما تبقى لهم من أرض اغتصبها العرب من النيل إلى الفرات ! وبرغم أن هذا النقيب قد اعترف بالحاده

وبأن أسرته كلها ملحدة وبأنه لا يؤمن بالخرافات الواردة في التوراة والتلمود ! !
فإنه بادر بالقول إنه يعتبر التوراة سجلاً تاريخياً لحركة الشعب اليهودي . . . ورفض
بعد ذلك أن يناقش أية فكرة تتعارض مع هذه الأفكار (المزروعة في دماغه) .
وليس الهدف هنا تحديد أى الرجلين على صواب ، ولكن هذين النموذجين
بصوران مدى التناقض الذى يعانى منه الجيش الإسرائيلى . . . إنه جيش واحد لكنه
متقسم على نفسه عقائدياً بين مؤمن شديد الإيمان بعقيدته ، وآخر لا يهتم سوى
المجد الشخصى وبطولات قصص الغرب .

ولقد وصل التناقض مداه حين أصبح من المقرر داخل الجيش الإسرائيلى
أن المهاجرين من أمريكا وأوروبا يخدمون فى الجيش داخل إسرائيل بعيدين عن
الجهة . . . أما المهاجرون من الدول الشرقية والعربية فيدفعون بهم إلى الجهة أمام
القوات المصرية ، أو على حد تعبير أحدهم « فى مواجهة الجحيم » . . . ولهذا نشأ
داخل الجيش الإسرائيلى صراع حاد بين اليهود السفرديم . . . والأشكناز .

كان هذا التناقض الصارخ ، وهذا الشرخ فى بناء الجيش الإسرائيلى ،
هو مجال هجوم الحرب النفسية المصرية التى شنتها قواتنا ضد قوات العدو . أما
مجال عمل الحرب النفسية الإسرائيلى بعد ٦٧ فقد كان الدعاية المضادة القائمة
على الصِّلَف والغرور . . . والتى تحاول بمختلف الطرق تثبيت فكرة « الجيش الذى
لا يقهر » ، وأن المقاتل المصرى لا يمكن أن يثبت أبداً أمام هذا الجيش فى أية
مواجهة . . . وكانت حججهم فى ذلك أن جيشنا قد هُزم من قبل فى ثلاث جولات
متتالية .

ولكن القيادة المصرية اتبعت أسلوباً جديداً فى مواجهة هذه الحملة الدعائية
المسمومة التى استهدفت احتلال « رقعة أرض » داخل نفسية المقاتل وعقله . . . كما
احتلت أرضه من قبل ! كان الرد هادئاً النبرة خالياً من التشنجات واقعياً عملياً . .
لا بد أن تعود إلى المقاتل العربى ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قادته ، وفى عدالة
قضيته . . . لذا جاء الرد بسيطاً للغاية . . . أن يقف المقاتل بنفسه على مدى كذب
هذه الادعاءات ، ويتعرف على حقائق الموقف وعلى أصالة معدنه ، ومن ثم بدأت

وحدات صغيرة من القوات المسلحة المصرية تقوم بعمليات عبور . . محددة هدفها . . هو :

١ - بثّ الذعر في صفوف العدو . .

٢ - بثّ الثقة في نفس المقاتل وفي سلاحه .

لقد قامت وحدة مصرية بعملية عبور ناجحة داخل خط بارليف . . وما إن عبّر أفراد هذه الوحدة إلى الأرض المحتلة حتى أحسّوا أنهم أمام الله ، وفي كنفه ، وفي مواجهة التاريخ ، وأن اللحظة التي يعيشونها هي ألف عام . . هذه حبات الرمل التي يجب أن تُستردّ كل حبة منها بقطرة دم ، أحسّ الرجال أنهم أمام تجربة مصيرية يجب أن تنجح . ولو أدّى الأمر إلى فنائهم جميعاً . . ولبثوا في أماكنهم صامتين يترقبون « الصيد » المنتظر . . وبعد لحظات قضوها في ضحك مكتوم وتندّر وتنكيت كمادة المصريين . . ظهر الصيد . . وفجأة مزّقت الرصاصات جوف الصمت الأخرس . . وزججرت الرشاشات ، واستحالت بقعة الأرض إلى جحيم مستعر . . وأصيب أفراد « الصيد » بذهول شلّ قدراتهم . . وسرعان ما تناثرت الأشياء والجثث . . وعلا الصراخ بالعبرية بعبارة واحدة متكررة « النجدة ! ! المصريون ! ! المصريون ! ! » .

تمّ القضاء على الصيد . . وكان لا بد من عودة أبطالنا إلى الضفة الغربية ومعهم « الحلو » ! ! و « الحلو » عند الأبطال هو الأسير ! ولاح لهم جنديان يجريان فزعاً وهرباً . . ولم يتردّد المقاتل عبد المقصود في تتبعهما وحده . . وأمسك بهما دون أن يطلق طلقة واحدة من مدفعه . وعادت المجموعة إلى أرض الوطن ومعها « الحلو » بعد أن حقّقت مهمتها بنجاح .

عادت الوحدة وهي تحمل إحساساً جديداً . . لم يكن سعادة غامرة وفرحة بالنجاح . . وإنما كان إحساساً بالارتياح . . لقد تمت المواجهة . . ووقف المقاتل المصرى في مواجهة المقاتل الإسرائيلي ، ليحقق مهمته بأعصاب ثابتة ، ملتزماً بالأوامر المحددة ، منفذاً ذلك المخطط الموضوع بعد دراسة علمية دقيقة . وأكّدت مثل هذه العمليات أن الدعاية التي تروّجها إسرائيل دعابة كاذبة .

تعتمد على الكثير من المغالطات التي دفعت هي ثمناً بعد ذلك .
كان المقاتل المصرى يعود من عمليات العبور المحدودة ، فيحكى عن بطولاته
وقدراته فى مواجهة جنود العدو ، فيثير هذا حمية الرجال ويشعل حماسهم . .
وأصبح العبور هدفاً ، وحلماً ، وأمنية شخصية . . الكل يرغب فى العمل . .
الكل يهدف إلى تحرير الأرض . . الكل يسعى إلى النصر ، أو الشهادة . .
ومن هنا قضينا على « الأسطورة قبل الحرب » . . ومن هنا استعاد المقاتل المصرى
ثقته فى نفسه ، وفى سلاحه ، وفى قيادته ، وفى عدالة قضيته . . وعقيدته القتالية .
وأصبح قادراً على خوض معركة التحرير . . لكن كان عليه أن ينتظر . . وبقي على
القيادة أن تُجرى حساباتها بدقة . . وأن ترقب المتغيرات الدولية . . وترسم خططاً
تعتمد كل الاعتماد على الأساليب العلمية فى الإدارة . . إدارة النيران . . وإدارة
المعارك .

وتحقق لنا النصر فى الحرب النفسية . . قبل أن يتحقق فى المعارك الحربية .
وبعد أن حققت حربنا النفسية أهدافها إلى حد كبير ، وأحرزت نتائج
لا بأس بها فى كثير من الأحيان ، بدأت مرحلة الاستعداد للحرب . لم تكن هناك
ديكتاتورية فى التفكير أو التخطيط . . بل كانت هناك دراسات وبحوث وحقائق
علمية وآراء مختلفة ومتعارضة . . تخرج من احتكاكها نتائج ثابتة وواضحة . .
وتتمت دراسة دقيقة مرهقة للاحتتمالات السياسية الدولية كافة . . والمتغيرات ،
والاقتصاد ، والسلاح ، والذخيرة ، والرجال ، والاحتياط ، واليوم ، والساعة ،
وزاوية ميل الشمس ، وسرعة تيار الماء فى القناة ، والتنسيق بين الجبهات ، والتمويه
والخداع . . و . . انطلق القرار كالرصاصة . . مارقاً . . مدوياً . . « العبور . .
لتحرير الأرض » . .

لم يحدث أن قرأنا من قبل فى تاريخ الحروب المعاصرة عن قوات حربية
تذهب إلى ميدان القتال ، والسعادة تغمر رجالها ، والفرحة تملو وجوه المقاتلين . .
ولكن حدث هذا للجيش المصرى لحظة صدور الأوامر بالتحرك تجاه الأرض
المغتصبة لتحريرها . لم يكن أحد يجهل أن الحرب آتية لا محالة . . لكن قرار

الحرب كان يحمل في طياته مفاجأة لها مذاق خاص . . فقد كانت هذه ساعة الخلاص . . لقد وقف الجنود والضباط يتعانقون في فرحة وسعادة مجنونة . . فقد أسكرهم منظر الطائرات المصرية بأعدادها الهائلة وهي تعود من داخل سيناء ، بعد أن دكت حصون العدو ومطاراته في عمق سيناء ، ومهدت الطريق للرجال ليحرروا الأرض . . وصاح أحد المقاتلين قائلاً : « أخيراً رأيت سلاحنا الجوي يعمل بجانبنا . أنصتْ إلى أزيز الطائرات وهديرها . . إنه نعم !! » .

واندفع المقاتلون . . وخرجت من حناجرهم صيحة « الله أكبر » قبل أن تفسح المجال لصراخ الطلقات المحمومة ، وزجاجة الدانات ، وزئير الصواريخ وتمت المواجهة التي كان ينتظرها كل مقاتل منذ ستة أعوام . .

ولعل لا أذيع سرّاً حين أقول إن دقة التخطيط وحكمته وصلت إلى حدّ أن القيادة أجرت « بروقات » لهذه الحرب قبل موعد التنفيذ بعام كامل . . وكان لهذا الجهد الخارق في التخطيط والتنفيذ أثرٌ بعيد المدى لدرجة أن خسائرتنا في اليوم الأول للقتال لا تكاد تذكر . . في حين أن الخبراء العسكريين توقعوا أن خسائر محاولة العبور فقط قد تبلغ حوالى ٧٥٪ من القوة البشرية والعتاد ولكن الشعار الذى رفعته القوات المسلحة « العرق في التدريب يوفر الدم في المعارك » قد تحقق برغم كل التوقعات .

لا أحد يحفل قصص البطولة والفداء التي شهدتها أرض سيناء . . لا أحد ينسى الرجال الذين ألقوا أجسادهم فوق الألغام ليمر زملاؤهم فوق جثثهم !! . . لا أحد ينسى الرجل الذى سدّ بجسده دشمة مدفع لا تتوقف طلقاته . . ليمنعها . . حتى يعبر زملاؤه إلى هذ الحصن ويدمروه !! . . لا أحد ينسى الرجل الذى رمى جسده فوق السلك الشائك الذى أحاط بموقع حصين ليعبر الرجال فوق جسده ويدمروا هذا الموقع !! . . لا أحد ينسى هذه الأعمال الخارقة والبطولات الفذة التي أكدت أصالة المقاتل العربى وشجاعته وبطولته .

لم يكن الإحساس الذى سبق الحرب إحساساً بالخوف التقليدى الذى يشعر به المقاتلون في أى مكان في العالم قبل الحرب . . بل كان إحساساً بالارتياح . . .

إحساساً بأن لحظة التأثير الشخصي قد حانت . . إحساساً بأن الرجل في طريقه
 ليطغى جذوة النار التي ظلت متأججة في صدره ست سنوات . . إحساساً بالخلاص !
 إن هذه الروح التي انطلقت في العاشر من رمضان . . لم تكن روحاً مكتسبة . .
 أو وليدة ظروف خاصة . . بل كانت روحاً أصيلة أطلقتها هذه الحرب من
 مكانها . . وحيث إنها شيء ثابت لا يتغير ولا يفنى أو يتبدد فسوف تظل أبد
 الدهر باقية كما هي . . زاداً يخوض بها المقاتل ما بقي من جولات أخرى .